زكريا والنوروز بين الماضي والحاضر

الدكتورة أمل الأسدي: كاتبة عراقية

لكل شعب من الشعوب عادات وتقاليد وسمات متوارثة،تنتقل من جيل إلى جيل آخر، تحتفظ بها الذاكرة الجمعية، وتعتز بها وبتمظهراتها على صعيد الملبس والمأكل والمشرب والفعاليات المختلفة، وهذه العادات والتقاليد الشعبية تمثل هوية الشعب الاجتماعية والثقافية، وذلك لرمزيتها وارتباطها بالبلد وبسكانه، من هنا اكتسب الفلكلور أهميته، وصارت المحافظة عليه ضرورية ؛لأنه يمثل وجود هذا الشعب وحضارته وكيانه وخصوصيته، وهنا سأتطرق الى مناسبتن يحتفل بهما الشعب العراقي وهما (يوم زكريا وعيد النوروز) فهما من الموروث الشعبي الذي اعتاد العراقيون على إحيائه في كل عام،إلاّ أن هناك متغيرات لحقت بهذين الطقسين أو المناسبتين، فصوم زكريا الذي يكون في الأحد الأول من شهر شعبان، وهو يرمز لصوم النبي زكريا(ع) الذي رزق على أثره بالنبي يحيى(ع)، كان يُحتفى به في بغداد على وجه الخصوص أكثر من بقية المحافظات، إلاّ أنه لم يكن كما هو الآن، فقد كانت صفته الصيام لثلاثة أيام، صوما إسلاميا، ثم الإفطار على خبز الشعير والماء المالح (ماء البئر) مع الخضروات الورقية وقليل من الدبس واللبن مع إشعال الشموع والدعاء والتوسل إلى الله تعالى لقضاء الحوائج ولاسيما لمن يطلب الذرية، وحين رجعتُ إلى الأمهات والآباء والجدات وسألتهم عن ماهية (صوم زكريا) قالوا: إنه كان بالهيئة التي ذكرناها ولم يكن كما هو الآن، فالصينية والجرار والأباريق الملونة والآس والبياضات والحلوى والطبلة لم تكن من مظاهر صوم زكريا حتى عام ١٩٦٢م تقريبا، إذ بدأت طقوسه تتغير، وأُضيفت عليه هذه المظاهر وهي من مظاهر عيد النوروز كما سنبينه لاحقا، تقول الحاجة أم محمد وهي من مواليد الكاظمية، عام ١٩٤٠ أنهم كانوا في (يوم زكريا) يخرجون في الأحد الأول من شعبان ليشتروا خبز الشعير من باب المراد، إذ تنتشر بائعات خبز الشعير في ذلك اليوم، ويُؤتى بماء

أما عيد النوروز فهو الحدث الأهم بالنسبة إليهم، فتُزرع الجرار وتُعد (الزردة بالحليب) وتُعجن (الكبة)وتُعد قدور (الدولمة) وتصبغ الأباريق، ويوضع (الياس) في الصواني، وتشعل الشموع، وتتبادل العوائل التهنئة والمأكولات والمشروبات، وترمى الجرار المزروعة من فوق السطح لتتكسر وترمز بذلك لزوال الشر ودفع البلاء.

البئر من أجل الإفطار به تعبيرا عن الصبر والتضرع لله تعالى.

ويحكي لنا الحاج محسن وهو من مواليد ١٩٣٦م عن صوم زكريا، أنه إذا لم يتوفر ماء البئر يقومون بنبذ الملح في الماء والإفطار به.

أما عيد النوروز فهو الحدث الأهم بالنسبة إليهم، فتُزرع الجرار وتُعد (الزردة بالحليب) وتُعجن (الكبة) وتُعد قدور (الدولمة) وتصبغ الأباريق، ويوضع (الياس) في الصواني، وتشعل الشموع، وتتبادل العوائل التهنئة والمأكولات والمشروبات، وترمى الجرار المزروعة من فوق السطح لتتكسر وترمز بذلك لزوال الشر ودفع البلاء،

وظلت هذه الطقوس الشعبية حتى منتصف السيتينات تقريبا، وبعدها تغيرت الأمور وانسحبت هذه المظاهر الى يوم زكريا!! اما في بغداد والمجتمع البغدادي فكان يحتفي بهذا العيد وبشكل باذخ ومميز، ويتم التحضير له والإعداد له من مدة، وتجتمع الأسر وتمتلئ (درابين) الكاظمية ومحلاتها برائحة(تمن العنبر) وتتناقل أطباق (الزردة والحليب) بين الجيران، وتزدان المنازل بـ(صواني) الاحتفال والشموع وشتى المأكولات، وظلت هذه المظاهر المبهجة حتى منتصف الستينيات كما أسلفنا،ولايُعلم كيف انسحبت هذه المظاهر الى صوم زكريا؟ وما الأسباب والدواعي لذلك؟ ولانعلم إن كانت هناك أياد خفية دفعت باتجاه قوقعة الشعب وعزله عن المشتركات الإنسانية والشعبية ودفعه نحو القومية والقطرية!!

وفي كل الأحوال يخلو (يوم الزكريا والنوروز) من المظاهر المحرمة المنافية للتعاليم الإسلامية؛بل هما يعززان من الترابط الأسري ويسهمان في إشاعة المحبة والألفة والجمال، ويتيحان فرصة للصفاء الروحي والعودة إلى البساطة والتلقائية، ولاسيما (يوم زكريا) الذي يقترن بالدعوات الى الله تعالى والتضرع وطلب الحوائج، ولا أدري لماذا يحاول بعض المتطرفين تزييف الواقع والادعاء بأن الناس في هذا اليوم تصوم صيام الصمت!!! والحقيقة أن الناس في هذا اليوم تصوم صياما إسلاميا، ولاننسى أن أجواء شهر شعبان في الأصل، كلها صيام وعبادة وأفراح بولادات أهل البيت (عليهم السلام).

وعلى هذا ينبغي لنا المحافظة على تقاليدنا وعاداتنا مادامت لاتتعارض مع النصوص المقدسة ومادامت تعود بالنفع المادي والمعنوي على الناس، ومادامت تمثل جزءا من الهوية الشعبية والثقافية للبلد، ولايفوتنا أن نذكر أن اليونسكو وفي جلسة شباط ٢٠١٠ م، قررت إدراج عيد النوروز في القائمة النموذجية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، كما اعترفت بيوم ٢١ آذار بوصفه «يوم نوروز الدولي».